أرنا كازين*

التربية على العسكرة ..

مَن يطلع على مناهج التعليم في المدارس الاسرائيلية، في جميع المراحل، لا بد أن يلفت انتباهه التوجه العام القائم على التنشئة التربوية بروح العسكرة والتجنيد للجيش، واعداد الطفل حتى يكبر ليصبح مقاتلاً؛ «روح اسبارطية»، كما وصفها العديد من المربين الديمقراطيين.

سادت هذه الروح منذ قيام اسرائيل العام ١٩٤٨، وقد تغلغلت في جميع الأجهزة الرسمية وغير الرسمية الإسرائيلية، ضمن محاولة لخلق «الاسرائيلي الجديد»، الاسرائيلي اليهودي الذي «خرج منتصراً في حرب ضد سبعة جيوش عربية» و«أقام دولة بعد ألفي عام» والى غير ذلك من الادعاءات الأساطيرية، ولكن هذه الروح اشتدت بعد حرب حزيران ١٩٦٧، والانتصار الساحق للقوات الاسرائيلية، اضف الى ذلك انتقال الجنرالات العسكريين الى الحياة السياسية، واحتلالهم مناصب عليا في القمة، رؤساء وزراء، وزراء، مدراء عامون، وقادة مؤسسات وأجهزة حكومية قطرية: اسحق رابين، عيزر وايزمان، ايهود باراك، ارئيل شارون، وقبلهم موشي ديان ويغئال ألون، ويسرائيل جاليلي، هذه الأسماء بدأت حياتها العامة في الجيش، وانهتها في السياسة، ومثلها العشرات.

في شهر أيار الماضي، بادرت مؤسستان أكاديميتان اسرائيليتان، لبحث هذا الموضوع في يومين دراسيين، الأول بعنوان «اليوم التالي» والثاني بعنوان «العسكرة والتربية، نظرة نقدية» (سنعود إلى أبحاث هذين اليومين الدراسيين في أعداد قادمة) مع افتتاحهما تناولت صحيفة «هآرتس»٢٠٠١/٥/٣٠، هذا الموضوع، بتقرير أشارت فيه الى الملامح العامة للتربية الاسرائيلية على العسكرة، منذ مرحلة الحضانة التي يبدأها الطفل الاسرائيلي اليهودي. فيما يلي نص هذا التقرير الذي كتبته ارنا كازين:

* كاتبة في صحيفة هآرتس

في الواقع، ليس هناك أية غرابة في القرارات الأخيرة التي اتخذتها وزيرة المعارف ليمور ليفنات؛ إنها تنسجم والرياح التي تهب منذ سنوات في وزارة المعارف. لقد ألغت ليفنات كتاباً في التاريخ بادعاء أنه يشتمل على مواقف «بوست ـ صهيونية» (ما بعد صهيونية ـ يدّعي أصحابها أن دور الصهيونية قد انتهى بقيام اسرائيل ـ المترجم) وقررت الوزيرة دعم موضوع جديد، وهو «تراث اسرائيل»، لتطبق بذلك توصيات لجنة «شنهار» التي أوصت بتوسيع الدراسات اليهودية، كما أن الوزيرة أمرت برفع العلم الاسرائيلي على جميع المدارس، بينما لم تزد من ميزانيات التعليم ولم تطبق توصيات تقرير كرمينيتسر، الذي طالب بتوسيع دراسة موضوع المدنيات. لقد قلّصت ميزانيات حصص التعليم في المدارس الرسمية، ولكنها خصصت مبالغ طائلة للمدارس في المستوطنات.

هذا التوجه، ما هو إلا استمرار طبيعي للتوجه القديم القائم على تولي جهاز التعليم نشر قيم الجيش، وليس قيم الديمقراطية. كذلك فإن الذين سبقوا ليفنات وبينهم وزراء ميرتس (شولاميت ألوني، يوسي سريد، أمنون روبنشتاين ـ المترجم) لم يغيّروا هذا التوجه بشكل أساسي.

تعقد في هذه الأيام أيام دراسية وندوات، يقدم فيها باحثون في مجال التربية دراسات نقدية حول هذا التوجه، في اطار مشروع بعنوان «اليوم التالي» برئاسة ميرون بنفنستي، تقوم مجموعة من الباحثين في مجالات مختلفة بفحص العلاقة بين امكانية انهاء الصراع مع الفلسطينيين، وبين أنماط سلوك الأجهزة المختلفة في المجتمع الاسرائيلي. في هذا السياق، تحدثت الدكتور سيغال بن بورات، من كلية التربية في جامعة تل أبيب عن مهمة جهاز التعليم بهذا الشأن، وهي اعداد الطلاب للعيش في مجتمع ديمقراطي إذا ما تحقق السلام، إذ إن السلام سيفرض هذا الاعداد، لأن الكثير من الأمور ستتغير في بنية المجتمع الاسرائيلي، وفي المواضيع التي تهم هذا المجتمع، وفي مصالح السلطة والضغوط التي تفرضها مجموعات مختلفة، عندما يتوقف الحديث هنا عن الوجود المهدد.

من ناحية أخرى، تقول الباحثة: «إن السلام سيأتي كما تقول الأغنية: لا تقولوا إن هذا اليوم سيأتي، بل إئتونا بهذا اليوم (مقطع من أغنية السلام الاسرائيلية، المترجم) أي: بدون التربية على الديمقراطية فلن ينشأ في اسرائيل جيل مستعد وناضج لقبول ثقافة السلام.

وفي اليوم الدراسي حول «العسكرة والتربية، نظرة نقدية» الذي عقد في الجامعة العبرية ومعهد الكيبوتسات (٢٠٠٠/٥/٣٠) ادّعى باحثون ان جهاز التعليم الاسرائيلي لا يخلو فقط من التربية على المواطنة والديمقراطية، وانما تقوم المدارس بالتربية على العسكرة، إن التصعيد في الصراع مع الفلسطينيين وتقبل المواطنين الاسرائيليين لهذا التصعيد دون مقاومة، هو نتيجة لهذه التربية.

ملصق في مدرسة يعكس روح العسكرة.

تقول الباحثة حاچيت غور زئيف، من مركز التربية النقدية في معهد الكيبوتسات: «إن التربية على العسكرة تتم بأساليب مختلفة، ففي يوم الاستقلال «يتعمشق» أطفال الروضات على الدبابات، ويزينون روضاتهم بأعلام وحدات الجيش، بدلاً من الاحتفال بقيم الديمقراطية والمساواة. حتى في الأعياد الأخرى الدينية فإن ما ينقل الى الطلاب، في الغالب، هو المفاهيم والقيم العسكرية. دائماً هناك تقسيم بين: نحن وهم، الطيبون والأشرار. «هم» أي: الغير، وهم دائماً الأشرار، فمثلاً: في عيد الحانوكا (الأنوار) يصوّر الاغريق بأنهم أشرار ونحن (اليهود) الطيبون، وهكذا المصريون الفراعنة في عيد الفصح، والعرب في عيد الاستقلال، والرومان في عيد العنصرة. ويتجاهل جهاز التعليم المعاني الثقافية والديمقراطية بهذه الأعياد.

في تراث عيد الفصح، هناك قصة جميلة عن بطولة النساء، عن تحالف بين امرأتين من طبقتين مختلفتين، واحدة من طبقة النبلاء والثانية جارية، مصرية ويهودية، وهما ترفضان قتل الأطفال، هذه القصة التي

تحمل المعاني الإنسانية والأمومة لا تُدرّس على سبيل المثال. وفي تراث عيد البوريم (المساخر) يمكن التحدث عن نضال الأقلية ضد الحاكم الظالم، وربط ذلك بالديمقراطية، الطريقة الوحيدة التي تحمي الأقليات. ويمكن التحدث عن أن هذه الحماية ليست بيد الحكام، وانما هي جزء من النظام الاجتماعي، ويمكن التحدث عن المرأة قاشتي التي تعتبر المدافعة الأولى عن حقوق النساء، واعتبارها امرأة تدافع عن رأيها، وليست عدوة بسبب انتمائها القومي.

تقول الباحثة غور زيف ان كل هذه المعاني الديمقراطية تغيب عن برامج التعليم، بسبب التأكيد على «نحن، وهم». لا يتعلم الطلاب التمييز بين مركبات هذه الشخصيات الأسطورية : هل كان مردخاي طيباً؟ (مردخاي شخصية يهودية انقذت اليهود من بطش الملك بواسطة الحيلة، في قصة البوريم ـ المساخر) هل حافظ على يهوديته مقابل المس بالآخرين؟ وهل استعملت استر (فتاة يهودية في القصة) انوثتها من أجل النجاة، ويمكن هنا التحدث مع الطلاب عن مدى استعمال النساء لأنوثتهن في حالات كهذه، وغيرها.

يقول المتحدثون في اليوم الدراسي، إنه ليس كل ما يحدث في جهاز التعليم بهذا الشأن مخططاً ومبرمجاً عن وعي، ولكن في هذا الجهاز، هناك تراكمات للمفاهيم العسكرية، وهو يخلو من المفاهيم الكونية أو المدنية، إن الرحلات المدرسية تنظم لمواقع المعارك، وتنظم لطلاب الثانويات أيام لمشاهدة تمارين عسكرية بالسلاح الحي. طلاب المدارس الابتدائية يرسلون في كل عام هدايا للجنود، ولا ترسل هدايا للفقراء والمرضى، ويدرس الطلاب بشكل دائم تاريخ الحروب ولا يدرسون تاريخ النضالات العمالية والنقابية أو النسوية.

وبين الحين والحين، يقرأ الطلاب أسئلة موضوعها الجيش، تظهر في كتب الرياضيات ففي كتاب الرياضيات للصف الخامس من تأليف مردخاي ڤاسوشتروم ورد السؤال التالي: من بين ٦,٣٤٠ جندياً متدرباً، طلب ٢٠٧٠ جندياً الانضمام الى وحدة المظليات و ١٧٤٥ انضموا الى المشاة، كم بقي من الجنود؟.

يُؤخذ الطلاب لمشاهدة معارض فنية لتخليد ذكرى الجنود الاسرائيليين (ياد ليبانيم)، وهناك يكتشفون الرابط بين الفن وبين الجيش. وتقول الباحثة ڤيرد شومرون: إن هذه الطريقة تجند الفن من أجل التغطية المؤسساتية على بشاعة الحرب.. وفي خارج المدرسة يطّلع الطلاب على اعلانات تجارية لشركة «تنوڤا» تعظم الجيش، مثل اعلان الجبن: ٥٠٪ لوحدة المظليين، ٥٠٪ لوحدة جولاني، ١٠٠٪ للعائلة)، وفي برامج الاذاعة الصباحية تجرى مقابلات مع رجال الجيش كخبراء في شؤون الصراع، وفي الكنيست والحكومة يرون جنرالات متقاعدين فقط أو رجال دين يقررون مصيرهم.

يضاف الى كل هذا، تجند جهاز الجيش لخدمة الجيش، الاعلانات التي تدعو الطلاب للتجند الى وحدات الجيش المختلفة والمعلقة على لوحات الاعلانات في ردهات المدارس (في المدرسة البلدية «أ» ـ تل أبيب ـ مثلاً فإن هذه الاعلانات تغطي المكان، ولا تترك مجالاً للاعلانات عن الديمقراطية وقصائد يهودا عميحاي)، كذلك تشترك المدارس في دورات الاعداد للجندية، وتستضيف جنوداً من وحدات مختلفة «لتسويق» وحداتهم للطلاب، دون أن يثير ذلك أية معارضة لدى أحد، كما تقول الباحثة غور زئيڤ، وتضيف: «لا أحد يسأل إذا كانت هناك مشكلة في الخلط بين المدرسة والجيش، ولا أحد يقترح عملية فصل، والتشديد على ان الاعداد للجيش، إذا كانت هناك ضرورة لذلك، يجب أن تكون في اطار الجيش فقط، قبل التجند ولكن في ختام التعليم».

وحول نفس الموضوع، تحدثت الكاتبة ريلي مزالي، عن دخول الجنود الى الصفوف والتحدث أمام الطلاب عن فظائع الجيش، دون أن يثير ذلك أي تحفظ لدى الاهالي. وتعقب غور زئيڤ قائلة «في جهاز التعليم يبحثون في كل المواضيع، مناهج التعليم، أساليب التدريس، تخصيص ميزانيات ولكن هناك صمت تام عن العلاقة بين المدرسة والجيش، في جهاز التعليم هناك ظواهر عديدة يمكن اعتبارها بسهولة مظاهر لنظام مناهض للديمقراطية لو اننا سمعنا انها قائمة في دول أخرى».

احدى الظواهر البارزة في هذا السياق، هي تسلّم ضباط كبار في الجيش مناصب ووظائف ادارية في المدارس، بعد انهائهم خدمتهم العسكرية.

تمول وزارة المعارف مشروع «تساڤتا» الذي يؤهل ضباطاً متقاعدين من الجيش وجهاز المخابرات (الشاباك) للعمل كمربين (يتم التدريب في معهد بيت بيرل)، وقد تخرج حتى الآن أكثر من ٣٠٠ ضابط يحملون الشهادات الجامعية الأولى، واندمجوا في السنوات الأربع عشرة الأخيرة في مدارس مختلفة في جميع أنحاء اسرائيل. بعضهم درس مدة سنة واحدة فقط للحصول على رخصة التدريس، وزاروا المدارس يومين فقط، وعينوا فوراً في وظائف ادارية. البعض منهم عينوا معلمين، وآخرون درسوا سنة اضافية، وعينوا في وظائف تربوية. ومنهم أيضاً من تولى وظائف كبيرة في جهاز التربية دون أي اعداد، مثل رون خولدائي، (رئيس بلدية تل أبيب حالياً، وقبلها مدير جمناسيا هرتسليا) ودرور ألوني.

وتساءلت الدكتورة هنرييت دهان كيليب، من جامعة تل أبيب، عن ما إذا كان هذا الخلط بين الجيش والتربية يخدم التربية أم يعطلها.

تحدثت الدكتورة كيليب عن تجربتها الشخصية كأم لطفل يدرس في احدى مدارس بئر السبع، فقالت: «إن أولياء أمور الطلاب يبحثون عن النظام والطاعة، في المدرسة، يبحثون عن رجل قوي يفرض سيطرته، لأن النظام في حالة انهيار، ويزداد العنف، وليس هناك أي تفكير ابداعي بحلول ديمقراطية» أي: ان جلب ضباط الجيش الى المدارس يرتبط بموضوع العنف في المجتمع الاسرائيلي، وضعف جهاز التعليم في التربية على الديمقراطية.

«هؤلاء (الضباط) في عيونهم بريق واحساس بأداء رسالة»، هكذا يصفهم موطي ساچي، مدير مشروع الضباط لاعداد قوى بشرية في مراكز تشغيل الأكاديميين في وزارة العمل، ويضيف: «يقف أمام الطلاب رجل برتبة عقيد، بشخصيته القوية فيحقق نجاحاً كبيراً، عندها يقف الطلاب وينشدون النشيد الوطني (هتكفا)، وهكذا يتبين أنه ينقل اليهم العديد من القيم، ولديه ما يسوّقه لهم، إنه قادم من مدرسة لا مثيل لها؛ (الجيش)، إنه ليس كخريجات معهد المعلمين التابع للكيبوتسات» يقول باستخفاف، ثم يتابع بجدية: «اليوم يبحثون في جهاز التعليم عن قياديين، وليس عن معلمين مهنيين. ضباط الجيش المتقاعدون يتمتعون بميزات خاصة، وقدرات ضخمة».

ملصق يشجع الطلاب اليهود على الخدمة في الجيش.

وتقول الدكتورة سيغال بن بورات «أن تكون مواطناً جيداً في اسرائيل، يعني أن تخدم في الجيش، وتندمج في سوق العمل». إن مصطلح «المواطنة الجيدة» يخلو من المضامين الديمقراطية والانسانية. في الدولة الديمقراطية، على جهاز التعليم، ان ينمي مواطنين وليس جنوداً ولا شغيلة. ليس هناك أي حق للدولة الديمقراطية في الحياة إذا لم يتمتع مواطنوها باستقلال ذاتي، وإذا لم يمنحوا الحرية والقدرة على اتخاذ القرار، واختيار طريقهم حسب فهمهم الخاص لمفهوم الخير الذي يخصهم.

إن المهارات الأساس التي يجب أن يحصل عليها المواطنون هي المهارات المدنية، والقدرة على التعايش في مجتمع سياسي. هذه هي النظرية الإنسانية منذ ارسطو الذي قال «إن الإنسان هو مخلوق سياسي وبامكانه أن يحقق هويته الإنسانية فقط بواسطة التربية المدنية السياسية».

وكما أوضح تقرير كرمينيتسر، فإن القصد «ليس فقط تعلم مبادئ الديمقراطية، عن البرلمان والحكومة وبقية الأسس الجافة، بل اعتناق مبادئ الديمقراطية بواسطة معاينة حالات اجتماعية ونقاشات مفتوحة ومحاكمات جماهيرية، وتعميم الفكر النقدي ونشر أجواء ديمقراطية في المدرسة، وتعليم الاطفال كيفية مواجهة قضايا اجتماعية وسياسية في مجتمعهم».

وتضيف الدكتورة بن بورات: «إن هذا النقص في جهاز التعليم خطير، لأنه يحتوي على تناقض، من جهة، هناك مشاركة فعالة في الانتخابات والفعاليات المدنية المختلفة، لجان الآباء، لجان الأحياء، والمنظمات التطوعية، ومن جهة أخرى، لم ترسخ المبادئ الديمقراطية والمدنية وأصول الطريقة الديمقراطية وأهمية هذه الطريقة.

وتلخص بن بورات بقولها: «التربية المدنية هي الدمج بين مصالح الدولة ومصالح الفرد، فللدولة والافراد هناك مصالح مشتركة في تنشئة مواطنين يتمتعون بالاستقلال الذاتي، خلافاً لمصالح المجتمعات الدينية وأصحاب رؤوس الأموال والجيش، المعنيين بتنشئة مواطنين خنوعين لا يفكرون إلا بالعمل والدين والجيش».

وتنهي الباحثة حاچيت غور زيئف، باقتباس للمربي البرازيلي باولو فريري، الذي قال: «الإنسان بطبيعته انساني وايجابي. ويحاول الناس تحسين بيئتهم، أما التربية اليوم، فهي تقمع هذه الميزة الأساس في الانسان».